التجريب النقدي عند عبد الملك مرتاض

د. ليلى مهدان
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
l.mehaddene@univ-dbkm.dz
أ. نسيمة مهدان
جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

الملخص:

يخرج النص الأدبي في منجزه عن التشكيل الواحد إلى أفضية المتعدد الأكثر رحابة، وهذا ما جعل السلطة التي يتمتع بها في مظانه تزداد نفوذا من مداخل جمالية، ودلالية عدة، مما وضع المقاربة النقدية على محك محاورة لم تتضح أطرها المعرفية بعد، فضلا عن هامش الانزياح عن القصدية النصية الذي أصبح أكثر اتساعا في كنف هذه التعددية.

وما يزال سؤال النص الأدبي قائما، ومثيرا للمقاربة النقدية التي انتهت في فترة حاسمة من تاريخها إلى استحالة تفكيك المعطيات النصية جميعها مع اختلاف مستوياتها الفنية، وتشعب خرجاتها الدلالية بالمقاربة المنهجية الواحدة، وفي سياق ذلك تعالت الأصوات الداعية إلى الرؤية التكاملية، والتداخل المنهجي في الخطاب النقدي، وقد ذهب "عبد الملك مرتاض" هذا المذهب في فترة متقدمة من تاريخ النقد الحداثي في الجزائر؛ حيث كان من السباقين إلى ممارسة التهجين المنهجي خضوعا لسلطة النص الأدبي.

وقد حفل تجريبه النقدي بالتراكم والتنوع المنهجيين، فقد قارب العديد المدونات الأدبية على اختلاف معطياتها الأجناسية شعرا ونثرا، فضلا عن تجريبه المقولات النقدية

المنارة للاستشارات

ومحاورتها تنظيرا، ومساءلتها تطبيقا، لكن هذه الزئبقية المنهجية التي فرضتها الزئبقية النصية قد أحدثت شرخا في الحدود المنهجية للقراءات النقدية؛ خاصة تلك التي تقع من بعضها موقع النقيض؛ ونمثل لذلك بالقراءتين السياقية والنسقية؛ على أساس المعارضة المعرفية القائمة بينهما من حيث زاوية الرؤية (السياق–رؤية من الخارج/النسق–رؤية من الداخل)؛ فأي مقاربة نقدية بالمتعدد المنهجي اقترحها "مرتاض" وجرّبها في منجزه النقدي؟، وأي موقع للخصوصية في ظل المقاربة بالمتعدد منهجيا؟.

نص المداخلة:

يمكن وصف المنجز النقدي الذي قدّمه "عبد الملك مرتاض" بالفريد في تراكمه، وتعدد مقارباته المنهجية، فضلا عن جمعه بين التنظير والإجراء في صياغة مشهد نقدي متكامل، فهل استطاع في ضوء ما قدمه من جهود مواجهة أسئلة النص الأدبي، وهل كان تراثيا، أم حداثيا، سياقيا أم نسقيا في تحليلاته؟.

لقد أبدى المنهج الواحد قصورا في الأداء القرائي؛ ولهذا توالت المناهج؛ يظهر بعضها في سياق عثرات بعض، دون أن يتمكن واحد منها من المجاراة المانعة الجامعة لقصدية النص، وكذا مقدرات سلطته؛ وهو المطلب الذي استحال هاجسا ما يزال يؤرق التفكير النقدي المعاصر، وشأنه في ذلك شأن باقي النقاد كان لمرتاض نصيبه من الاجتهاد في التجريب والممارسة.

عرفت المنظومة النقدية أهم انزياح لها في الأطر المنهجية؛ بذلك التحول من الرؤية خارج النص التي حملت توصيف "النقد السياقي"، وتعنى في مكنونها المعرفي بمعاينة المرجعيات التاريخية، والاجتماعية، والنفسية التي تتدخل في إنتاجية النص، وتتحكم في توجيه مسارات قراءته، إلى الرؤية من داخل النص التي حملت توصيف "النقد النسقي"؛ والتي تشتغل على مختلف المعطيات النصية اللغوية؛ وقد تفرعت كل من الرؤيتين إلى

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

تصورات منهجية فرعية، اجتهد كل منها في سبيل امتلاك الخاص معرفيا الذي يمنح الضمانات الكافية للاستقلال المنهجي.

لقد كانت المقاربة البنيوية بحديها الشكلاني، والبنيوي؛ فاتحة عهد الانزياح المنهجي في المقاربة النقدية، من مدخل استفزازي معارض للمنطق النقدي السياقي، وهذا ما آمن به مرتاض ودافع عنه صراحة حين قال: «فلا بيئة، ولا زمان، ولا مؤثرات، ولا هم يحزنون، وإنما هو نص مبدع نقرؤه، فهو الذي يعنينا، وهو الذي ندرسه، ونحلله بالوسائل العلمية، أو الوسائل الأقرب ما تكون إلى العلم»[1].

يمثل النص الأدبي عصب الاشتغال الأول في خطاب المساءلة النقدية، وبما أن البحث في الأنساق الاجتماعية، والتاريخية، والمؤثرات النفسية يجعلنا نحيد عن موضوع هذا الاشتغال، أسقطه الناقد من حسابات القراءة الجديدة؛ القائمة على استهداف النص بمنطق العلم؛ فينطلق منه لينتهي إليه، عادا إياه مسعاه الأول والأخير.

وهذا التطلع إلى المقاربة العلمية في نقد النصوص الأدبية قد رفعت شعاره البنيوية؛ وإن كان الناقد لا يصرّح بذلك في هذا المقام؛ ذلك أن «المفهوم أو المصطلح البنيوي قد ظهر في مجال الفكر النقدي لمحاولة تحرير لغة النقد من طبيعتها الكيفية والمذهبية، وجعلها لغة قريبة من لغة العلم الكمية»[2].

لقد قدّم مرتاض العديد من المصنفات التي عبرت عن هذا التوجه النقدي الجديد، موظفا مقولات النقد الغربي المعاصر؛ حيث أفاد كثيرا من أدواتها الإجرائية في

1– عبد الملك مرتاض، **الألغاز الشعبية الجزائرية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص ص 07.

2– سمير سعيد، **مشكلات الحداثة في النقد العربي**، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2002، ص 84.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

مكاشفة المتون الأدبية العربية، وفق ما قدّمه كل من "رولان بارت"، و"ميشال فوكو"، و"جاك دريدا"، و"جوليا كريستيفا"، و"جان كوهين"، و"يوري لوتمان"، و"غاستون باشلار" من تصورات تقارب الكتابة من حيث هي بنية كلامية ضمن بنية أشمل تتمثل في اللغة، وأن النص نظام مركب من الوحدات الدالة، في اتصال دوالها بمدلولاتها، على حد ما ذهب إليه دوسوسير[1].

وقد كان لهذا الجهد الذي تفضل به الناقد قصب السبق في وضع قواعد الفكر النقد النسقي في الجزائر، وكان مستهله النقدي بنيويا «يقارب النصوص مقاربة آنية محايثة؛ تتمثل النص بنية لغوية متعالقة، ووجودا كليا قائما بذاته، مستقلا عن غيره»[2]، والمحايثة النقدية ها هنا تقوم على دراسة البنى النصية من حيث انتظامها الداخلي، واتساقها العام تحديدا للسمات الوظيفية الفاعلة للوحدات النصية.

لقد ظهر ملامح المقاربة النقدية بالمتعدد المنهجي؛ القائمة على التركيب المنهجي بين البنيوية والأسلوبية في العديد من أعماله؛ متمثلة في: "الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث" خلال الفترة (1920 – 1954) (1981)، و"الألغاز الشعبية الجزائرية" و"الأمثال الشعبية الجزائرية" (1982)، و"النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟" (1983)، و"بنية الخطاب الشعري" (1986)، و"عناصر التراث الشعبي في اللاز" و"في الأمثال الزراعية" (1987)، و"الميثولوجيا عند العرب" (1989)، و"القصة الجزائرية المعاصرة" (1990).

عوّل الناقد في دراسته الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث على النقد البنيوي الشكلاني؛ حيث عمد إلى تحليل نماذج من الخطاب الشعري الجزائري من منافذ

1- ينظر: **النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية**، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط، 2002، ص 119- 120.

2- يوسف وغليسي، **مناهج النقد الأدبي**، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص 71.

المنارة للاستشارات

بنيوية تختص بالتحليل المستوياتي، دلاليا، وصوتيا، ومعجميا، وفنيا، وقد استثمر في معالجته لها تقنية الإحصاء التي أعانته في ذلك، وتظهر بوادر المقاربة النقدية بالمتعدد في الانحراف عن المعالجة البنيوية إلى المعالجة الأسلوبية، فضلا عن التدخل المنهجي السياقي الذي أحالتنا إليه المعطيات التاريخية[1].

كما تتجلى استجابة الناقد للتصور البنيوي في ضوء تبنيه مقولة موت المؤلف؛ حيث قصد الاشتغال على مدونات أدبية مجهولة النسب؛ متمثلة في نصوص الأدب الشعبي؛ خاصة الأمثال والألغاز؛ سدا لأي منفذ محتمل لتأثير مرجعية المؤلف.

إلا أنه يتصدى لشرح المضامين وتفسيرها، مع أن الشرح والتفسير من مفاهيم المقاربة النقدية السياقية، ويظهر التحليل البنيوي الشكلي الإحصائي في تقصي المستويات اللغوية والأسلوبية للشكل الفني، فالطرح المنهجي البنيوي «لا ينسحب على الدراسة من ألفها إلى يائها، وإنّما يتجلى – فقط– في القسم الثاني من الكتاب، الذي يعالج الشكل الفني للألغاز الشعبية، والذي ينصبّ على دراسة لغة الألغاز وأسلوبها، دراسة تراوح بين البنيوية والأسلوبية»[2].

غير أننا نلفيه أحيانا لا يفصل بين الشكل والمضمون في التحليل النصي؛ حيث خصص القسم الأول من دراسته لـ "الألغاز الشعبية الجزائرية"[3]للمضمون؛ وبذلك خالف ما اتجهت إليه البنيوية الشكلية؛ حيث تغلّب الشكل نظرا لما يكتنفه من قيم جمالية،

1– ينظر: يوسف وغليسي، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكالياته)**، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط، 2002، ص 55.

2– المرجع نفسه، ص 51.

3– ينظر: **الألغاز الشعبية الجزائرية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 177–178.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

وما يؤديه من أدوار في إنتاجية المعنى النصي[1]، وهذه المخالفة لا ترد من منفذ التجريب القاصر، بقدر ما ترد من منفذ النص الذي يجعل الناقد ينساق في محاورته إياه وراء المتعدد حتى وإن كان محكوما بالمعارضة داخل النسق المرجعي الواحد، أو الأنساق المتعددة فيما بينها.

ووفق الاقتراب النقدي ذاته يحاور "الأمثال الشعبية الجزائرية"؛ من حيث البنى النصية الآتية: المضمون، والحيز، والزمان، واللغة، والأسلوب[2]، حيث يتجلى التركيب المنهجي في جهد الإجرائي الذي قدّمه وهو بصدد دراسة سبعة وعشرين مثلا شعبياً جزائرياً، من حيث مستويات اللغة الفنية والبنيات الأسلوبية، والزمنية، والصوتية أيضا[3].

ويستمر الناقد في السياق المنهجي الإجرائي المتعدد ذاته في دراسته "الميثولوجيا عند العرب"، حيث يتصدى لمقاربة مجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية[4]، ويتجلى اشتغاله البنيوي في التحليل اللغوي لمستويات الشكل الفني في النص التراثي الشعبي، وغير بعيد عن هذا تأتي دراسته "القصة الجزائرية المعاصرة"، بملامح المقاربة المضمون، فضلا عن معالجة معطيات نصية أخرى مثل الشخصية، والحيز، والمعجم الفني؛ حيث

1- بشير تاوريريت، **مناهج النقد الأدبي المعاصر – دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيق**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2008، ص 41.

2- ينظر: **الأمثال الشعبية الجزائرية (تحليل لمجموعة من الأمثال الزراعية والاقتصادية)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007، ص 175- 176.

3- ينظر: عبد الملك مرتاض، **في الأمثال الزراعية (دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلا شعبياً جزائرياً)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1987، ص 211.

4- ينظر: عبد الملك مرتاض، **الميثولوجيا عند العرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر، الجزائر – تونس، د.ط، 1989، ص 135.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

تظهر نسقية المقاربة البنيوية[1]، في حين «تبرز فعالية المناهج الألسنية الجديدة في القسمين الثاني والثالث، المتعلقين بدراسة الشخصية، والحيز، والمعجم الفني، إلاّ أنه يعود ليناهض جوهر هذه المناهج – من جهة ثانية – حيث يعرض لبعض "الهنات الألسنية" لدى بعض الكتاب، بما ينافي وصفية المناهج النصية»[2].

وقد اجتهد الناقد ما استطاع في التزام الإجراء البنيوي في دراسته "النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟"[3]، بتصوره النظري، وطرحه الإجرائي الجاد؛ الذي يعدّ باكورة الفكر النقدي النسقي في الجزائر[4]؛ حيث تصدى لمكاشفة التقنيات الفنية القائمة في تخريج نص أدبي لـ "أبي حيان التوحيدي"، مفيدا من مقولات النقد الغربي في تحليل بناه[5]؛لأن البنيوية تركز على مفهوم البنية الذي يستمد دلالاته من النظام اللغوي[6].

قام الناقد برصد البنى الإفرادية التي تشمل الأسماء والأفعال، والبنى التركيبية التي تشمل الجمل الإسمية والفعلية، وأشباه الجمل، معتمدا الإحصاء في رصد هذه الوحدات،

1- ينظر: عبد الملك مرتاض، **القصة الجزائرية المعاصرة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1990، ص 239-240-241.

2- يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، المرجع السابق، ص 54.

3- وهي في الأصل عبارة عن مجموعة من المحاضرات، تفضل الأستاذ "عبد الملك مرتاض" بإلقائها في سياق تأطيره لطلبة الماجستير خلال السنة الجامعية (1980 – 1981).

4- ينظر: يوسف وغليسي، **النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية**، مرجع سابق، ص 13/ 122.

5- ينظر: **النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1983، ص 5.

6- ينظر: عمار ساسي، المصطلح في اللسان العربي من آلية الفهم إلى أداة الصناعة، ط1، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2009، ص 94.

المنارة للاستشارات

كما ترفع عن دراسة الزمن النحوي إلى تجليات زمنية أخرى مستوحاة من الأسماء والأشياء والأوصاف.

وإذا كان الزمن من المقولات النصية المصاحبة للنص الروائي، فقد اهتدى الناقد إلى وجوده في النص الشعري؛ وأطلق عليه توصيف "الزمن الشعري"، وكذلك "الحيز" في الدلالة على الفضاء، ثم عمد إلى الدراسة الجمالية للتراكيب الصوتية، مع تسليط عدسة القراءة على العلاقات بين مختلف الوحدات النصية، وما يحكمها من انسجام واتساق، ليختم دراسته بالقراءة الأسلوبية؛ «معززا بثقافة ألسنية معتبرة، طارحا جملة من الأسئلة التي غالبا ما تنصبّ حول "المتغيرات الأسلوبية" في النص»[1].

وما يمكن أن نسجله على هذه الدراسة أن اعتمادها الإحصاء في رصد البنى النصية قد حملها على اقتطاعها من النسق اللغوي العام؛ فتم تحديد حقلها الدلالي بمعزل عن الحقل الدلالي العام للنص، وهذا ما منحها تفسيرا جزئيا دون التفسير الكلي.

ولا تقتصر المقاربة بالمتعدد على المنهج فحسب، بل تنسحب على المرجعية الفكرية التي ينطلق منها في التحليل؛ حيث نجده يتمثل منجزات النقد الغربي، فضلا عن الجمع بين التراث والحداثة؛ حيث يسائل نص الأبي حيان التوحيدي مساءلة نقدية حداثية، من منطلق الإيمان بقداسة المعطى الأدبي الذي يترفع عن المرحلة.

إن البنيوية تصور نقدي محكوم بالتعدد؛ فهناك الشكلية بمفهومها النسقي المحض، والتكوينية بمفهومها الهجين الذي يجمع بين التحليل النسقي للغة، والتفسير السياقي للبعد الاجتماعي، وإذا كان التهجين النقدي مدعاة للثراء في الرؤية، فإنه لا ينفك يخلق أزمة في الإجراء، وهذا ما حمل "مرتاض" على أن يعنى أكثر بالمقاربة البنيوية الشكلانية، مشيرا إلى ذلك في دراسته نصا روائيا لنجيب محفوظ؛ حيث قال: «وعلى

1- يوسف وغليسي، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض**، مرجع سابق، ص 59-60.

المنارة للاستشارات

الرغم من أن الرواية الواقعية، وهو أمر ينطبق إلى حد بعيد على نص "زقاق المدق"، يلائمها منهج البنيوية التكوينية، إلا أننا نرى أن هذا المنهج المهجن لا يبرح، لدى التطبيق غير دقيق المعالم، وأحسبه غير قادر على استيعاب كل جماليات النص وبناه؛ حيث أنه إذا جنح للبنوية تتنازعه الاجتماعية، وإذا انزلق إلى الاجتماعية تنازعته البنوية، فيضيع بينهما ضياعا بعيدا»[1].

لقد فطن مرتاض إلى الارتباك الذي يحمله التصور البنيوي التكويني؛ جراء الجمع بين خطابين ينتميان معرفيا إلى مرجعيتين متعارضتين في منطق الاشتغال، تتمثلان في السياق، والنسق، فضلا عن كون هذه الرؤية المنهجية تحمل بعدا ارتداديا يفتقد لمبررات معرفية قوية، فهذه العودة المفاجئة لمقولة السياق والاتصال بمقولات النسق في الآن ذاته تعكس حيرة النقد الحداثي، والارتباك الذي وقع فيه بعد التجريب الشكلاني الصارم الذي قاطع وبشكل نهائي كل معطيات الإنتاج الأدبي المصاحبة للنص والتي تأخذ موقعها خارجه؛ فسقط منه الكثير في صياغة خطابي الفهم والتأويل.

ولاشك أن مقاربة بهذا القدر من عدم الغموض والارتباك تحتاج إلى مراجعة منهجية ومصطلحية لكي تصبح صالحة للتجريب، وهذا ما جعل مرتاض يسقط البنيوية التكوينية من خياراته المنهجية، فكان خياره المقاربة بالمتعدد منهجيا؛ التي وضح حدودها فقال: «وإذن، فإنا عدلنا عن البنوية التكوينية، وآثرنا بنوية مطعّمة بتيارات حداثية أخرى، وخصوصا السيميولوجيا التي أفدنا منها لدى تحليل ملامح الشخصيات، ولدى تحليل خصائص الخطاب السردي الذي لم نستنكف من الإفادة أيضا من بعض الأدوات

1– عبد الملك مرتاض، **تحليل الخطاب السردي – معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدق**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 18.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

اللسانياتية؛ للكشف عن مميزات السطح فيه على حين أن المنظور البنوي الخالص ظاهرنا على الكشف عن البنى العميقة والفنية المتحكمة في هذا الخطاب السردي»[1].

تتضح في هذا الحد المنهجي ملامح المقاربة النقدية بالمتعدد منهجيا؛ التي تعدّ علامة فارقة في التجريب، إذ يمكن أن تقع في حكم المتجاوز للطبيعة الاستقلالية، والانفصالية للمكاشفات المنهجية الحداثية وما بعدها، وهذا التطعيم أملته رؤية واعية تتطلع لتكييف المفاهيم والمقولات خارج حدود المنهج الواحد؛ مع الأخذ في الاعتبار احتكامها للمرجع المعرفي ذاته، لتكون في مستوى تلقي نص لا يقل تعددا؛ فكلما كان هامش المقاربة كافيا كلما اقتربت أكثر في تغطيتها للعمل الأدبي.

كان تدخل الناقد في مدرج تحليل الشخصيات والخصائص الفنية للخطاب السردي سيميولوجيا، في حين كان تدخله في تحليل بناه بنيويا خالصا؛ أي بنيويا شكلانيا فهو الأنسب لذلك، في حين نجده يلجأ إلى التدخل الأسلوبي في تحليل الأساليب في مقامات نقدية أكثر فهو لا يظاهرنا بتدخل منهجي محدد، وحتى المتعدد لديه يتفاوت في حضوره الإجرائي.

تخطت قراءات مرتاض الحدود الضيقة للمنهج الواحد استجابة لمتطلبات نصية خالصة، فالنص يتحكم في توجيه الخطاب الذي نحاوره به، فينصاع لنا في حوارية مثمرة تقودنا أخيرا لبناء فهم صحيح بشأنه، وهذا إن دل على أمر إنما يدل على خصوصية ما في الفكر النقدي لدى هذا الناقد الذي أظهر تمكنا في أكثر من مقام؛ ووعيا بالمتعدد في بيان جدلية العلاقة بين النص وما يقاربه فيقول: «كما أن النص الحداثي الذي قد يقوم على آخر تقليعة تقنية في الكتابة، لا يشفع له ذلك وحده في دراسة تنهض من

1– عبد الملك مرتاض، **تحليل الخطاب السردي – معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدق**، مرجع سابق، ص 18.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

حوله غير ذات مسعى حداثي، ولا متخذة أدوات ملائمة لها، من حيث تقنياتها، وتشكيلاتها، وتوتراتها، فتظل نصا مغلقا، وحقلا بورا»[1].

إن هذا التركيب المنهجي المتنوع في آلياته يقود بشكل ما للقراءة النقدية التكاملية للمنجز النصي، «وتتضح معالم "المنهج المركّب" أكثر، لدى "عبد الملك مرتاض"؛ في كتابه "تحليل الخطاب السردي" الذي يقدّم "معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة" لرواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، والكتاب – على غرار سائر كتب مرتاض – موطأ بمدخل منهجي مهم، يوضح القصد المنهجي الذي آثر أن يسلكه؛ ابتغاء تقصي الحيثيات السردية لهذا الخطاب الروائي»[2].

إلا أن الناقد مثلما عودنا على سلاسته المنهجية في الإجراء لم يكن تفكيكيا بالمعنى الصارم للتفكيكية، ولا سيميائيا بالمعنى الصارم للسيميائية، بل كان ألسنيا بين هذا وذاك؛ متحررا في تدخلاته المنهجية، بغض النظر عن مرجعياتها المستعارة، وآليات تطبيقها.

ونسجل تخطيه المقاربة البنيوية؛ دلالة على انفتاح أفقه النقدي على المقاربة بالمتعدد في التجريب المنهجي المركب من السيميائية والتفكيكية؛ فبالنسبة إليه «لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التخمة التي مُني بها النقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب»[3].

1- عبد الملك مرتاض، **تحليل الخطاب السردي – معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدق**، مرجع سابق، ص 20.

2- يوسف وغليسي، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض**، مرجع سابق، ص 69.

3- عبد الملك مرتاض، **تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق)**، مرجع سابق، ص 6.

المنارة للاستشارات

وتظهر هذه التعددية النقدية في دراساته: "ألف ليلة وليلة– تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد" (1989)، و"أ/ي– دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل خليفة" (1992)، و"شعرية القصيدة قصيدة القراءة– تحليل مركب لقصيدة أشجان يمنية" (1994)، و"تحليل الخطاب السردي– معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية «زقاق المدق»" (1995).

لقد قارب الناقد نصا تراثيا تمثل في حكاية حمال بغداد[1]، من منظور نقدي معاصر؛ فضلا عن كونه تأليفا سيميائيا وتفكيكيا؛ ناقش في ضوئه عناصر الخطاب الحكائي متمثلة في «الحدث، والشخصيات، والحيز، والزمن، وتقنيات السرد، وبنية الخطاب، والمعجم الفني»[2].

وقد تبنى مقولات السرديات الغربية رافدا للمقاربة الحكائية؛ حيث «استفاد في تحليله من إنجازات علم السرد عند جينيت على وجه الخصوص، وبدأ تحليله بأن حكايات ألف ليلة وليلة أزخر الآثار الإنسانية بالتنوع في الحيز، والتنوع في الفضاء، والغرابة في المكان، ويلاحظ التقارب بين الألفاظ الحيز، والفضاء، والمكان في تطبيقه النقدي»[3].

أما في دراسته لقصيدة أين ليلاي للشاعر الجزائري محمد العيد آل خليفة فسارت في الاتجاه نفسه كما سبق وأشرنا؛ أما عن خطوات التحليل التي مرّبها فقد كان المستهل بتفصيل حول «بنية القصيدة لدى محمد العيد، بحث فيه الخصائص البنيوية العامة لشعر

1– يوسف وغليسي، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض**، مرجع سابق، ص 55.
2– المرجع نفسه، ص 64-65.
3– عبد الله أبو هيف، **جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر**، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، **سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية**، سوريا، مج 27، العدد1، 2005 ، ص 130.

المنارة للاستشارات

محمد العيد من خلال 120 نصا كاملا على غرار القراءة التفكيكية التي تشرح النص في ضوء النموذج الذي ينتمي إليه، حيث انتهى إلى أن هذه البنية شبيهة ببنية القصيدة العربية العمودية واستمرارا لها؛ من حيث طول نفسها واصطناعها الإيقاعات الفخمة الشهيرة، واختيار القوافي المألوفة، واصطياد الصور المعتادة، واختيار اللفظ، وانتقاء العبارة... أمّا الفصول المتبقية فليست في أغلب غاياتها إلا تفكيكا، وتقويضا لهذه البنية العامة التي تضمنها الفصل الأول بمنهج بنيوي، وإجراءات سيميائية»[1].

أما دراسته لقصيدة أشجان يمنية، فقد سبق له أن قارب المدونة الشعرية ذاتها في دراسة سابقة وسمها: "بنية الخطاب الشعري – دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية" (1986)، ولكن بقدر من الاختلاف والتمايز؛ وإن كان الطرح تشريحيا تفكيكيا في كلا الدراستين؛ دلالة على إمكانية التعدد القرائي للمقاربة التفكيكية؛ فللمتن الواحد من منظور الرؤية المنهجية الواحدة؛ قد يحتمل أكثر من قراءة؛ لذا شكل مؤلفه هذا «تأكيداً ضمنياً قاطعاً لتمكن التصور التفكيكي في مستوى التعددية القرائية من القناعة المنهجية للناقد، ويأتي صنيعه هذا حدثا نقديا متفردا»[2].

غير أن المقاربة بالمتعدد منهجيا لم تقتصر على الطرحين التفكيكي والسيميائي بل انسحب أيضا على تدخلات أخرى؛ حيث يأتي التدخل السيميائي في تحليل القصيدة «بعرضها على عدسة التشاكل (Isotopie) الذي هو من أبرز الفرعيات السيميائية التي نقلها جوليان غريماس (A.J. Grimas) من عالم الفيزياء والكيمياء إلى حقول الأدب والنقد»[3]؛ إضافة إلى «المنظور السيميائي، في معالجة النص على

1– عبد الملك مرتاض، **نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دط، 2003، ص 71.
2– يوسف وغليسي، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض**، مرجع سابق، ص 75.
3– المرجع نفسه، ص 76–77.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات

مستوى الحيّز، وأخرى على مستوى الرباعية السيميائية: الأيقونة، القرينة، الرمز، الإشارة»[1]، ويأتي التدخل الأسلوبي في تحليله جماليات الانزياح اللغوي؛ حيث «حلل مرتاض ضروبا إنزياحية شتى بلغة إبداعية ثانية، تتقصى جمالياتها التعبيرية بوصفها أساليب منحرفة عن النمط الاستعمالي المعياري»[2].

وتبلغ المقاربة النقدية بالمتعدد المنهجي مبلغها من التعدد في تركيب يجمع بين التفكيكي والسيميائي تصريحا، والبنيوي اشتغالا، فضلا عن الأسلوبي والموضوعاتي تدخلا؛ وهي معطيات منهجية فرضتها ضرورة المكاشفة السردية لرواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ؛ وحجتنا في ما أشرنا إليه ما ذكره وغليسي حين قال: «قد كان الكتاب دراسة بنيوية المنهج أصلا، لكنها تتمفصل على إجراءات منهجية أخرى: معلنة كانت تفكيكية، سيميائية، إحصائية أم غير معلنة أسلوبية، موضوعاتية»[3].

خلاصة:

لقد كان "عبد الملك مرتاض" في الدراسات التي ذكرنا تجريبيا بكل ما تحمله الكلمة من دلالة متخصصة في النقد الأدبي؛ ولا أدل على ذلك من تعدد انزياحاته القرائية التي قادته في وقت مبكر إلى المقاربة النقدية بالمتعدد منهجيا، متجاوز بها التصور المستحدث كل التحفظات التي تقيم للمنهج النقدي الواحد وزنا، في حين لاشك أنها تقف شاحبة أمام سلطة النص وما يفرضه من مطالب في القراءة الجامعة المانعة؛ فلا حرج معرفي من هذه الاختراقات ما دامت تملك مبرراتها ممارستها من المرجعية النصية ذاتها.

1- المرجع نفسه، ص 77.
2- المرجع نفسه، ص 77.
3- المرجع نفسه، ص 75.

المنارة للاستشارات

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو هيف (عبد الله)، **جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر**، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، اللاذقية، سوريا، مج 27، العدد1، 2005.

2. تاوريريت (بشير)، **مناهج النقد الأدبي المعاصر – دراسة في الأصول والملامح والإشكالات النظرية والتطبيق**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2008.

3. ساسي (عمار)، **المصطلح في اللسان العربي من آلية الفهم إلى أداة الصناعة**، ط1، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2009.

4. سعيد (سمير)، **مشكلات الحداثة في النقد العربي**، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2002.

5. مرتاض (عبد الملك)، **الألغاز الشعبية الجزائرية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

6. مرتاض (عبد الملك)، **القصة الجزائرية المعاصرة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1990.

7. مرتاض (عبد الملك)، **الميثولوجيا عند العرب (دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة)**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر، الجزائر –تونس، د.ط، 1989.

8. مرتاض (عبد الملك)، **النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1983.

9. مرتاض (عبد الملك)، **تحليل الخطاب السردي – معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية زقاق المدق**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

10. مرتاض (عبد الملك)، **في الأمثال الزراعية (دراسة تشريحية لسبعة وعشرين مثلا شعبياً جزائرياً)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 1987.

المنارة للاستشارات

11. مرتاض (عبد الملك)، **نظرية القراءة (تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية)**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دط، 2003.

12. وغليسي (يوسف)، **الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكالياته)**، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط، 2002.

13. وغليسي (يوسف)، **النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية**، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، د.ط، 2002.

14. وغليسي (يوسف)، **مناهج النقد الأدبي**، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

15. مرتاض (عبد الملك)، **الأمثال الشعبية الجزائرية (تحليل لمجموعة من الأمثال الزراعية والاقتصادية)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007.

ISSN: 2716-7887
المنارة للاستشارات